النفحة التاسعة: رَمَضَانُ وسهام الليل

هناك تلازم وثيق بين الدعاء وسائر العبادات، بل إن الدعاء هو مخ العبادة، وذلك من بديهيّات عالم القلب وسوانح الروح، فالعبد لا يتحقق بمعنى العبودية الصادقة، ما لم تتقدْ جذوة المناجاة ولهيب التضرع للّه جلَّ في علاه في قلبه، فمن مقتضيات العبودية أن يكون العبد ملحاحاً بالدعاء على باب سيده ومولاه سبحانه...

ولنا أيها الصائمون الكرام، في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنى، والقدوة العظمى، فقد كان ﷺ رباني الشعور والسلوك، وعندما يدعو ربه فبرغبة ورهبة، ويشتد النبض في الآهات المنسابة، وتحتد العاطفة في المشاعر المتوهجة، فلا يملك من يستمع إلى دعائه أو حتى يقرؤه إلّا أن يخشع وتنتابه الاستكانة للّه رب العالمين...

أيها الصائمون:

وأول مظاهر الدعاء في رَمَضَانَ كانت تتجلّى على رسول الله ﷺ عندما كان يوشك هلال رَمَضَانَ أن يهل، يقول ابن عمر: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال: «**اللّهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، هلال خير ورشد، ربي وربك الله**»[1].

وعن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال: «**هلال خير ورشد**» ثم قال: «**اللّهم إني أسألك من خير هذا الشهر وخير القدر، وأعوذ بك من شره**» ثلاث مرات»[2].

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، 3/ 171، رقم: (888)، والحاكم في المستدرك، 4/ 317، رقم: (7767).

(2) مجمع الزوائد، 10/ 139، وقال: رواه الطبراني بسند حسن.

إننا نشعر من خلال كلمات الدعاء هذه بسمو قلب راصد للزمن الدوّار، وحمدِ مقلب الليل والنهار، إنه متهلل بمقدم شهر فيه الخير كله والرشد كله، كما أنه يشيع نعمة سالفة من هلال سلف وانطوى في غياهب الأيام، فالأيام والأشهر عند الحبيب ﷺ مطية سريعة لطاعة المولى، فمن المستحيل أن تضيع لحظة من رسول الله ﷺ في لهو أو غفلة...

وكان إذا صام (وحان ميعاد الإفطار، وقد جفف لهيب الرمضاء الحلوق، وأرهق الأبدان، وأوهن القوى، تراه قبل أن يتناول تمرات أو مذقة لبن، تنساب منه هذه الدعوات: «**ذهب الظمأ، وابتلت العروق وثبت الأجر...**» وعلى نسق هذه الدعوات كان ﷺ يملأ نهاره وليله، وشهره وسنته، ويزداد توهج الضراعة، وشدة المناجاة في رَمَضَانَ، حيث يشد مأزره ويوقظ أهله، ويحي ليله كله، وما ذاك إلّا لأن ينابيع الحياة العاطفية السامية في نفس الحبيب ﷺ تجيء من معرفته الساطعة باللّه تعالى، وإخباته المتواصل له، والإلحاح في الدعاء والافتقار لجنابه سبحانه.

أيها الأحباب:

عندما يضيق الخناق على أحدنا، ويشتد الخطب، ويتفاقم الأمر، وعندما يحاصر الواحد منا من كل جهة، وتعصف به الملمات، ويجهز عليه شبح ليل أسود عقور يطارد رقاده، وينفر سهاده، ويطوق عنقه بطوق الهموم الخانقة، والمصائب الداهمة، عندها تفتح له السماء أبوبها، ويرفع كفيه مع حرارة في الالتجاء، ويقين في القبول، مستذكراً قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: 62].

ومستحضراً حنان الله ولطفه لمن رجاه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60].

ويلح في المسألة، ويكثر الطلب، وهو متيقن أن الله تبارك وتعالى أقرب إليه من حبل الوريد ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186].

يقول صاحب الظلال[1]: (أيَّة رقة، وأيُّ لطف، وأية شفافية، وأيُّ إيناس، وأين تقع مشقة الصوم، ومشقة أي تكليف في ظل هذا الود، وظل هذا القرب، وظل هذا الإيناس؟ إنها آية عجيبة، آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين، ويعيش منها المؤمن في جناب رضيّ، وقربى نديّة، وملاذ أمين وقرار مكين.

وإضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه... لم يقل: فقل لهم: إني قريب، إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال، قريب، ولم يقل: أسمع الدعاء، إنما عجل بإجابة الدعاء: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: 186].

ورسولنا ﷺ أخبرنا أن الدعاء بحد ذاته عبادة كبرى، ينبغي على المسلم أن يستزيد ويكثر منها، قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[2]، وكيف لا يكون مخ العبادة، ومن خلاله يرفع العبد الأوّاه حاجاته إلى ربه الحنان المنان، وتتصاعد منه الشكوى والنجوى إلى علام الغيوب، ويتقاطر اليقين من كل حرف من حروف كلمات تعجز اللغة عن ملاحقة سنا برقها الكريم...

وإذا ما رفع المسلم يديه، ولاذَ بجناب الله، وألحَّ في المسألة، فإن الله يستحي أن يرد كفيه خائبتين، قال ﷺ: «**إن الله حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين**»[3].

واعلم أخي المسلم، أن الدعاء ما ينبغي أن يكون إلّا بالهدى والرشاد، والخير والفلاح، أي إن الدعاء بالمآثم والمعاصي، وقطيعة الرحم ليس من أخلاق الأخيار من عباد الله تعالى، ولا من سجايا الأطهار، قال ﷺ: «**لا يزال يستجاب**

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 173.

(2) صحيح ابن حبان، 3/ 172، رقم: (890) وغيره.

(3) رواه الترمذي، 5/ 556، رقم: (3556)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[1].

إذا عرفنا أن الدعاء بالإثم وقطيعة الرحم وسائر الآثام، مردود لا يستجاب فلنعلم كذلك أن الدعاء المتغمس صاحبه في أكل مال الحرام، والذي لا يتورع عنه أيضاً مردود، إذ ليس من المعقول أن ينتهك الإنسان حداً من حدود الله تعالى، ويرتكب محظوراً من نواهيه، وهو أكل الحرام، ثم يريد بعد ذلك أن يكون مجاب الدعوة، روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلّا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾** [المؤمنون: 51].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: 172]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك[2].

وفي «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: أن الطبراني قد أخرج بسند فيه نظر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تليت عند رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: 172] فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادعو الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال النبي ﷺ: «**يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه عملاً أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به**»[3].

فكم يا إخوتي الكرام من الناس لا يتورع عن أكل الحرام، بل إن هناك

(1) رواه مسلم، 17/ 45، رقم: (6871).

(2) رواه مسلم، 2/ 703، رقم: (1015).

(3) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص99.

جمهوراً كبيراً من المسلمين قد انغمسوا في أكل الربا، وشتى صنوف الحرام إلى آذانهم، كيف يطمح هؤلاء أن تستجاب دعوتهم!! إن دعوة آكل الحرام لا تجاوز لسانه، وتنفر منها الملائكة الكرام، لأن الله لا يصعد إليه إلّا الكلم الطيب من عبد طيب النفس والمنشأ والمال...

ورمضان يا مسلمون، شهر تزكية وتنقية وصفاء، إنه شهر يطهّر الأموال المشوبة بالحرام، ويغربلها من الأدران، فبادر أيها الصائم الكريم، لتطيّب مالك مما علق به من حرام وربا، ولا تطعم نفسك وأولادك وأهلك إلّا حلالاً مباركاً، ولا تجعل أجسادهم تنبت من سحت، فإن الحرام يمحق المال وأهله...

ولقد وضع العلماء آداباً للدعاء، يحسن بنا أن نوردها هنا لنكون في دعائنا أقرب إلى مظنة القبول منه إلى الرد، وهي:

❑ أولاً ـ أن يدعو وهو مستقبل القبلة رافعاً يديه:

وتولية وجهه إلى القبلة ورفع يديه في الدعاء سنة نبوية، وتوجيه رباني، ذلك لأن الإنسان يستقبل القبلة في صلاته، والله في قبلة العبد، فمن المندوب أن يكون الدعاء هكذا، روى مسلم في صحيحه: «أن رسول الله ﷺ أتى الموقف بعرفة، واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس»[1]

وقال ﷺ: **«إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين»**[2].

❑ ثانياً ـ الاستفتاح بالثناء على الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء:

عن فضالة رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاة لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«عجلت أيها المصلي»**، ثم علمهم رسول الله ﷺ وسمع رجلًا يصلي على النبي فقال رسول الله ﷺ: **«أيها المصلي ادع تجب**

(1) رواه مسلم، 2/ 890، رقم: (1218).

(2) رواه الترمذي، 5/ 556، رقم: (3556)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

وسل تعط»[1].

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله ﷻ يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما.

❑ ثالثاً ـ خفض الصوت بين الجهر والمخافتة:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (لما غزا رسول ﷺ خيبر، أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلّا الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم**»، وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلّا باللّه، فقال لي: «**يا عبد الله بن قيس**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**ألا أدلك على كلمة كنز من كنوز الجنة**»، قلت: بلى يا رسول الله فداك أبي وأمي قال: **لا حول ولا قوة إلّا باللّه**»[2].

واللّه سبحانه وتعالى ندبنا إلى هذا الخلق في الدعاء، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 55].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: 110].

❑ رابعاً ـ أن يوقن بالإجابة:

وليحسن الظن باللّه تعالى، وليوقن أنه قريب مجيب للدعاء، ولا يرد من دعاه، ولا يخيب من والاه، قال ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافل لاه**»[3].

---

(1) صحيح ابن خزيمة، 1/ 351، رقم: (709)، وابن حبان، 5/ 290، رقم: (1960).

(2) البخاري، 4/ 1541، رقم: (3968).

(3) رواه الحاكم في المستدرك، 1/ 670، رقم: (1817)، وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد.

❑ خامساً ـ إظهار الإخبات والتضرع وعدم التكلف:

والتكلف لا يستقيم أبداً مع حال المتضرع الأوّاه، وخاصة تكلف السجع في الدعاء، فلقد نهى النبي ﷺ عنه، فعن عكرمة عن ابن عباس قال: حدث الناس كل جمعة مرة فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلّا ذلك، يعني لا يفعلون إلّا ذلك الاجتناب)[1].

يقول الإمام الغزالي في الإحياء[2]: (اعلم أن المراد بالسجع هو المتكلّف من الكلام، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة، فليقتصر على المأثور من الدعوات، أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع والرغبة والرهبة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90].

❑ سادساً ـ الدعاء ثلاثاً ثلاثاً:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدعو ثلاثاً ويستغفر ثلاثاً)[3].

وهناك آداب أخرى كثيرة، كأن يدعو بجوامع الكلم كما كان يفعل ﷺ، وأن يتحرى الأوقات التي يظن أن الدعاء فيها مجاب، وخاصة المنصوص عليها، كالدعاء يوم عرفة وليلة القدر، وفي الثلث الأخير من الليل، وبين الأذانين، وأن يختم الدعاء بـ (آمين).

---

(1) البخاري، 5/ 2334، رقم: (5978).

(2) إحياء علوم الدين، للغزالي، 1/ 427.

(3) صحيح ابن حبان، 3/ 203، رقم: (923).

ولنعلم أيُّها الأحباب، أن الدعاء سلاح المؤمن، سلاح فتاك يعمل عمله ويؤدي دوره، وخاصة إنِ استخدمه العبد ليلاً، فهو من سهام الليل التي لا تخطئ الهدف والرمية، وخاصة إن كان الداعي مظلوماً مضطهداً مقهوراً، أخذ ماله أو شرد من وطنه بغير حق إلّا أن يقول ربي الله...

وتبين هذا من وصية رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، عندما أرسله إلى اليمن، فكان مما أوصاه قال: «... **واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[1].

وقوله ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»[2].

هذه الأحاديث وغيرها تنبئ عن ثقل الدعاء في ميزان السماء، وأن صاحبه لا يمكن أن يخيب، بل إن الله تعالى أقسم بجلاله أنه سينصر المظلوم، ما دام ملحاحاً ضارعاً إلى الله بالدعاء، صافاً قدميه في محراب الالتجاء، رافعاً كفيه إلى من يعلم السر وما يخفى...

أيها الصائمون:

إن في هذه الأحاديث تهديداً صارخاً للظلمة، الذين تجاوزوا الحدود، واعتدوا على الآخرين، وسطوا على أموال الناس وانتهكوا حرماتهم، فكم في الناس من أكل حق أخيه وهو صائم؟ وكم منهم من أضرَّ بأخيه المسلم في ماله وولده وأهله وهو صائم؟ وكم منهم من أعان ظالماً على مسلم فأرداه في غيابات السجون وظلمات القيود وهو صائم؟

وكم ممن ملكوا زمام أمور المسلمين، عاثوا في الأرض الفساد، وما أقاموا الحق والعدل والقسطاط المستقيم بين الناس، وهم صائمون؟ إن دعوة المظلوم

(1) رواه مسلم 1/ 50، رقم: (19)، وغيره.

(2) مجمع الزوائد، 10/ 152، رواه الطبراني.

سريعة الإجابة، خطيرة النتائج، تقصم ظهور الكياسرة، وتزلزل ملك الجبابرة، سواء كانوا أفراداً أم دولاً، بل لَكَمْ حدثنا القرآن الكريم عن دول عظمى، وممالك كبرى، زالت واندحرت واندثرت بدعوة مظلوم... اسمعوا إلى بيان القرآن هذا، الذي يرينا مصرع أمة بأكملها بدعوة مظلوم، ألا وهو نوح عليه السلام، دعا ربه فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القَمَر: 10]، فماذا كانت النتيجة؟ جاءت بفاء التعقيب والفورية والسرعة، لكنها بسرعة قاتلة مهلكة، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القَمَر: 11 ـ 13].

وهذا الطاغية فرعون، الذي استعبد الناس، وادعى الربوبية والألوهية، وظلم العباد شر مظلمة، وتبجح قائلاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى...﴾ [القَصَص: 38] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: 24].

فواجه موسى عليه السلام، والمستضعفون المظلومون معه هذا التجبر والكبرياء بهذه الـدعـوات: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يُونس: 88].

وأنتم الآن أيها الصائمون الكرام، في شهر تجاب فيه الدعوات، وترفع فيه البلايا والكربات، فأكثروا من الدعاء لإخوانكم المستضعفين المسلمين المضطهدين في بقاع الأرض كلها، فهناك دول إسلامية كثيرة استعمرها الظالمون، هتكوا الأعراض، وهدموا المنازل، ويتَّموا الأطفال، ورملوا النساء، وذبحوا الرجال، وأتلفوا المزارع وجعلوا بلاد المسلمين مرتعاً للخمور والمخدرات والشذوذ والزنى والخنى...

ويتحتم علينا ونحن في شهر القبول أن نكثر من الدعاء على الظلمة المجرمين، كما كان يدعو ﷺ، فلما تحزبت عليه الأحزاب في غزوة الخندق، وانشغل في دفع ظلمهم وبغيهم، شغل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس، فدعا عليهم، فعن علي رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: «ملأ الله

بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[1].

وعند البخاري عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قنت بعد الركعة في صلاته شهراً، إذا قال: سمع الله لمن حمده يقول في قنوته: **«اللَّهم أنج الوليد بن الوليد، اللَّهم نج سلمة بن هشام، اللَّهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللَّهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللَّهم اشدد وطأتك على مضر، اللَّهم اجعلها سنين كسني يوسف»**[2].

وظلم رجل سعد بن أبي وقاص، فدعا عليه سعد فقال: (اللَّهم أعم بصره، وأطل عمره وعرضه للفتن، قال عبد الملك بن عمير: فأنا رأيته بعد ذلك شيخاً كبيراً مفتوناً، إذا سئل كيف أصبحت؟ يقول: شيخ كبير، مفتون أصابتني دعوة سعد، فقال سعد: فأنا رأيته وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن، قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر)[3].

أيها المستضعفــون:

عليكم بسهام الليل التي لا تخطئ، اجأروا إلى كاشف البلوى وسامع النجوى، ادعوا الذي يجيب دعوة المضطر، ويكشف السوء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل: 62].

يروي الحسن البصري رحمه الله تعالى حادثة فيقول: كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نُبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: اكتم عليَّ أمري، حبسني الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت في أضيق حال، وأسوء عيش وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس، أُخرجت جماعة كانوا معي فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقي، فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني، فقلت: إلهي اشتد الضر،

(1) رواه البخاري، 3/ 1071، رقم: (2773).

(2) البخاري 1/ 467، رقم: (675).

(3) رواه البزار، 3/ 274، رقم: (1062)، وأبو يعلى، 2/ 54، وغيرهما.

وفقد الصبر، وأنت المستعان، ثم ذهب من الليل أكثره، فأخذتني غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي: قم فصل ركعتين وقل: يامن لا يشغله شيء عن شيء، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ، وأنت عالم بخفيات الأمور، ومحصي وساوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى، وعلمك محيط بالمنزل الأدنى تعاليت علواً كبيراً، يا مغيث أغثني، وفك أسري، واكشف ضري، فقد نفذ صبري، فقمت وتوضأت في الحال، وصليت ركعتين، وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف عليَّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي، ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت، فقمت فخرجت ولم يعارضني أحد، فأنا واللّه طليق الرحمٰن، وأعقبني الله بصبري فرجاً، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودعني وانصرف يقصد الحجاز[1].

يا مَن نزلت بساحته المحن، واشتد الخطب عليه، وحاصرته الكروب، وسدت في وجهه أبواب الأرض، اقرع باب السماء، ولا تبرح أعتاب الرحمن، واذرف الدموع، واسكب العبرات، فإنك تسأل كريماً جواداً، عفواً عطوفاً...

والدعوة الصادقة إن صدرت عن قلب مؤمن صادق، فإنها تفعل الأعاجيب، وتغير مجرى الأحداث والأوضاع، فهذا الصحابي الجليل البراء بن مالك رضي الله عنه، كان أشعث أغبر، نحيل الجسم ضعيف البدن، لا يملئ عين ناظره، لكنه كان مجاب الدعوة رضياً، لقي البراء بن مالك المشركين، وقد أوجع المشركون في المسلمين، فقال المسلمون له: إن رسول الله ﷺ قال: «**إنك لو أقسمت على الله لأبرك**» فقام واغتسل وصلى ركعتين ثم قال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك، فمنحوا أكتافهم، وحظي البراء بالشهادة واستجاب الله له، فكان النصر حليف المسلمين»[2].

وهذا عبد الله بن جحش قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما يوم أُحُد: (ألا تدعو

(1) المستطرف في كل فن مستظرف، 1/ 66.

(2) الإصابة 1/ 143، والطبقات الكبرى 3/ 441.

ﷺ، فخلَوْا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيتُ العدو فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه، حتى أقتله وآخذ سَلَبَه، فأمَّن عبد ﷺ بن جحش، ثم قال: اللَّهم ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلتَ: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك ﷺ، فيقول: صدقت، قال سعد: يا بنيَّ كانت دعوة عبد ﷺ بن جحش خيراً من دعوتي، لقد لقيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلّقان في خيط)[1].

للَّه درُّهم من رجال صدقوا ما عاهدوا ﷺ عليه، فنالوا الحسنى وزيادة، وكتب لهم القبول في الأرض وفي السماء، عند الناس وعند ﷺ تعالى، إذا رفعوا أكفهم تستحي السماء أن تبقى مغلقة الأبواب، بل تهتز الجنان فرحاً وطرباً بشذى دعائهم، ويوم لقائهم...

ولعظيم مكانة الدعاء، وإظهار أثره في الدنيا والآخرة، سارع العباد الأطهار الذين سمت أرواحهم، وطهرت نفوسهم، وتعلقت قلوبهم بقيوم السموات والأراضين، سارعوا رغباً ورهباً إلى محراب الدعاء والالتجاء، فتضرَّعوا وبثوا الشكوى، وأنزلوا في ساحة الحق حوائجهم، فكان الجواب أسرع من ارتداد الطرف، ولنتأمل معاً خشوع الأنفاس في دعاء الأنبياء والصالحين، من ذلك ما جاء في سورة الأنبياء ﷺ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ...وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى

(1) الإصابة 2/ 287.

فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 76 ـ 90].

فاغتنم أيّها الصائم الكريم نفحات هذا الشهر المبارك، بالثناء على الله والدعاء، فإن عجزت عن الابتهال والدعاء في هذه الأيام المباركة، فأنت أعجز في سواها، وإن تقاعست عن رفع الأكف في شهر القبول هذا، فمتى يقبل منك ويستجاب لك...

اللَّهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللَّهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.